معقد من التعليل وتحليل اللغة ، نسيج عظيم ولكنه نسيج العنكبوت فى رأى العقاد .

دعنى أقف مرة أخرى عند بيتين لشوقى . قال العقاد . وقد نشرت لشوقى رحمه الله مسودة قصيدة واحدة هى قصيدته التى نظمها على قبر نابليون ، فإذا فيها بيت يقول :

وتوارت فى الثرى أجزاؤها .. وسناها ماتوارى فى السنين

ولكن البيت انتهى عند الفراغ من القصيدة هكذا :

قد توارت فى الثرى حتى إذا .. قدم العهد توارت فى السنين

وكثير من القراء يفضلون صوغ البيت الثانى ونغمته ، وتستطيع أن ترى سياق الأفعال هنا ، حيث يتوارى كل شىء فى هدوء وعذوبة دون معاناة . ويستقر لفظ السنين بسلطانه أو جلاله (فى أذهان كثير من القراء) . « كل شىء فيه ينسى بعد حين » ـ كما يقول شوقى أيضاً .

كان العقل هو البصيرة أو الكشف فى البلاغة ، فإذا أعوزهم قالوا إننا أمام ادعاء . وكانت المحبة هى هذه البصيرة عند العقاد . كان الشعر فى البلاغة والنقد العربى بمعزل عن الأخلاق ؛ وكانت الأخلاق تفهم فى إطار من الأوامر والنواهى ، أو التحيز والإملاء . وطبيعى أن العقاد القارىء المخلص تعلم ثم علّم الناس أن المبدأ الأخلاقى الذى يتمتع به الشاعر لا يقوم على هذا التحيز وإنما يقوم على التمثل والاستيعاب دون عوائق .

لماذا تغنى العقاد طول حياته بمعرفة النفس ؟ لأن معرفة النفس تعنى معرفة العالم ، ولأن البهجة بالحياة أداة الحقيقة النشيطة .

بعض النقاد الآن يتصورون أن شئون التحليل اللغوى تستقيم بغير فلسفة ؛ وهذا غريب . والمهم أنهم يتصورون أيضاً أن شئون التحليل اللغوى تتعفف أو يجب أن تتعفف عن مثل هذه الملاحظات القائمة على الاستبطان ؛ وهذا غريب أيضاً .

المهم أن كل شىء يدل على أن العقاد قرأ فكرة الغبطة بالحياة ، وأدارها فى ذهنه ، وأخرجها مخرجاً شخصياً جديراً بالإعجاب . قرأها وقرأ البلاغة وقرأ الشعر العربى .